اسم الدرس :تفسير سورة الأعراف (١٠) | الآيات[٨٠ : ٩٣]

تصنيف الدرس :مجلس تفسير

❖ مقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- وقفات ومجالس مدارسة سورة الأعراف -أظن هذا المجلس العاشر-، كنا توقفنا عند الآية ٨٠ عند قوله -سبحانه تعالى-:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[الأعراف ٨٠ - ٨٣]

يقول ربنا -سبحانه وتعالى-بعد ذكر قصة سيدنا نوح، ثم هود، ثم صالح عليهم السلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾.

وذكرنا أن أحد أوجه الترابط بين القَصَص بهذه الطريقة هو ترتيبها الزمني، وهذا أول شيء، حيث كانت بعثتهم -الأنبياء عليهم السلام — بهذا الترتيب: سيدنا نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم بعد ذلك إبراهيم -ولم يذكر هنا- وكان في زمنه لوط، ثم شعيب عليهم السلام.

أيضًا ذكرنا أن ذِكر الأقوام بهذه الطريقة -أي بالترتيب- يُبَين مدى تطور الأمم الكافرة في رد دعوة الأنبياء، وكيف أنّهم يطورون أدوات الرفض؛ ففي البداية اتهموا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالضلال، ثم بالسفاهة، ثم حاولوا عقر الناقة، ثم بعد ذلك كما سنتحدث اليوم ما فعلوه من إشاعة الفحشاء في المجتمع، ثم بعد ذلك في تطفيف المكيال والميزان، ومحاولة إخراج النبي ومن آمن معه من الأرض، وهذا أيضًا حدث مع قوم لوط.

بمعنى أنهم انتقلوا من مرحلة الرد بالقول: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف ٦٠]، ثم بعد ذلك اتهموه بالسفاهة، وكذلك قوم صالح انتقلوا من القول إلى الفعل؛ فحاولوا عَقْر الناقة.

وذكرنا في المرة الماضية لماذا عقروا الناقة، ولماذا ذُكِر ذلك الفعل -أي عقر الناقة- بصيغة الجمع رغم أن الذي عقر الناقة هو فرد منهم.

ولم يَعد التَّعدِّي فقط على الآيات -فقد كان التعدي على الناقة لأنها الآية-، بل هنا سنجد أن التعدي أصبح على الأنبياء أنفسهم وعلى المؤمنين، تعديا باستعمال القوة وليس بالكلام فقط.

فيقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلُوطًا﴾[الأعراف ٨٠] بعضهم قال بأن تقدير المحذوف: واذكر لوطًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معطوفًا على: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[الأعراف ٥٩]؛ لأنه لم يقل:[ولوطًا إلى قومه]، فيكون تقدير الجملة: واذكر لوطًا إذ قال لقومه.

هذا المشهد تحديدًا، سنجد أن كل الأقوام الذين ذكروا في الآيات جاءوا في صيغة: [وإلى+ القوم الذين أرسل إليهم النبي]؛ مثل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾[الأعراف ٧٣]؛ أي: ولقد أرسلنا إلى ثمود، ثم بعد ذلك: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾[الأعراف ٨٥]، فكلّ الأقوام جاء ذكرهم بتلك الصيغة.

لكن آية: ﴿وَلُوطًا﴾[الأعراف ٨٠]، جاءت فجأةً هكذا بدون عطف على آية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾[الأعراف ٥٩]؛ وحتى لم يذكر في البداية بدعوة التوحيد رغم أنه -عليه الصلاة والسلام- دعاهم إلى التوحيد بالفعل، لكن لماذا كان التركيز من أول القصة على تقبيح تلك الفاحشة والهجوم عليها؟!

لأن هذا موقف يُحْمَد للوط؛ بأن يتكلم مع قوم انتشرت فيهم الفاحشة واستقرت، إذ صار الكل يمارسها، فخروجه كداعية ليتكلم في هذا الأمر ومواجهته للمجتمع كلّه في هذه اللحظات، هذا موقف يحمد للوط عليه السلام. وكأن ربنا -سبحانه وتعالى- يقول: واذكر هذا الموقف تحديدًا للوط؛ إذ وقف أمام قومه وقال لهم: أتأتون الفاحشة؛ ينكر عليهم هذه الفاحشة.

إذًا انتشار الفاحشة في مجتمع لا يعني أن نسكت عليها بل لابد من قَوْمَة، ولابد من وَقْفة صادقة من الدعاة إلى الله -عز وجل- ومن العلماء أمام هذه الفاحشة ، كما قلنا أنهم يعتمدون على انتشار الفاحشة أنها أمر واقع فينتهي الموضوع ويصمت الناس: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف ٢٨]، فالحل أن يكون هناك مقاومة وحالة استنكار للفاحشة وإلا سيكون هناك نوع من التطبيع مع المعصية.

يوجد معاصي كثيرة الآن أصبحت بتعبير أهل العلم: "مما عمت به البلوى" ، فمن عموم البلوى انتشرت هذه المعصية فأصبح الإنسان يجد في صدره حرج أن ينكر هذه المعصية لأنها مما عمت بها البلوى في المجتمع...بمعنى أنّه سينكر على هذه أم تلك أم ذاك؟!

المنكر الذي تريد أن تنكره موجود في كل مكان فكأنك لا تستطيع أن تنكر، فبالرغم من انتشار الفاحشة في هذا المجتمع وأن الكل يعتبرها أمر طبيعي وأن الكل يمارسها، إلا أن لوط عليه السلام وقف وقفة صادقة وأنكر عليهم هذه الفاحشة.

وكأن أيضًا الدعوة لا تتوقف على التوحيد فقط، ولكن من تبعات التوحيد إنكار المنكر ولاسيما لو انتشر في المجتمع، لابد أن يقف العلماء والدعاة أمام انتشار هذه الفاحشة وأمام انتشار أي منكر.

وفي الآية: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾[الأعراف ٨٠]؛ استفهام تعجبي واستنكاري، وسماها فاحشة من قبحها، إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء.

وفي قوله تعالى على لسان لوط: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ ابتكار في الشهوات. كما قلنا أن من معالم سورة الأعراف أن المجتمعات تتطور في الفاحشة، وتتطور في المعاصي، وتتطور في وسيلة مدافعة الأنبياء.

فالمتتبع لكلمة: الملأ ،سيجد بداية ذكر الملأ فقط.

ثم: الملأ الذين كفروا.

ثم: الملأ الذين استكبروا.

ثم: (الملأ الذين كفروا والذين استكبروا)؛ الاثنين معًا.

ثم بعد ذلك سنرى بإذن الله عز وجل-إن قدر الله عز وجل لنا إتمام السورة- كيف أن الملأ هم المحركون أو هم المحرك الأساسي في قصة فرعون في سورة الأعراف بعكس سورة الشعراء...سنجد أن ذكر الملأ في سورة الأعراف مختلف عن بقية السور، و أكثر سورة ذكر فيها كلمة الملأ هي سورة الأعراف.

❖ ابتكار شهوات

فيحدث تطور ما، وهنا في قوم لوط حدث تطور للفاحشة، إذ ابتكروا فاحشة وشهوة جديدة ومنكر جديد، هكذا المجتمعات إذا مرت بحالة من الإسراف والترف كما وصفهم لوط: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف ٨١]، الشهوة لاتقف عند حد، سنذكر ذلك عند قوله –سبحانه وتعالى–: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف ٨٠]؛ أي أنكم وصلتم من الفجور لدرجة أن تبتكروا وتخترعوا شهوات وفواحش ومعاصي جديدة ومنكرات جديدة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف ٨١]؛ أي أنتم تفعلون ذلك لمجرد الشهوة والاستمتاع فقط، ولا يترتب على ذلك أي نفع.

وهنا ملمح هام جدًا في قول لوط لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في أن الشهوات لا تقف عند حد، فلو ترك الإنسان لنفسه عنان الشهوات، ولو ترك نفسه للفجور: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[القيامة ٥] لن يتوقف، وسينتقل من شهوة إلى شهوة، ولن يشبع أبدًا كالذي يشرب من البحر المالح، هكذا الإنسان مع الشهوات.

لذلك جاء الشرع لا ليمنع الشهوة ولكن ليَضْبطها، فيكون للشهوة ضابط، وكذلك المشاعر كالغضب والخوف فإن الشرع لم يأت بنفي هذه المشاعر وبعدم اعتبارها، ولكن بوضعها في موطنها.

لذلك الصحابة لما تعجبوا بأن الرجل يأتي زوجته ويكون له الأجر، –يتعجبون كيف يستمتع الرجل مع زوجته ويأخذ الأجر!– فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– : (أرأيتم إذا وضعها في حرام؟! أليس عليه وزر؟!) فقالوا: بلى، فقال: (كذلك إذا وضعها في الحلال)[1].

[1] [عن أبي ذر الغفاري:] أنَّ ناسًا مِن أَصْحابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا رَسولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوالِهِمْ، قالَ: أَوَلَيْسَ قدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أيَأْتي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ وَيَكونُ له فِيها أَجْرٌ؟ قالَ: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَها في حَرامٍ أكانَ عليه فِيها وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذا وَضَعَها في الحَلالِ كانَ له أَجْرٌ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٠٠٦ • [صحيح]

فإذًا القضية في كيفية توجيه المشاعر، وفي توجيه الشهوة وضبطها؛ كتوجيه مشاعر الغضب حينما يوجهها الإنسان لأعداء الله -عز وجل-، وتوجيه الخوف حينما يخاف الإنسان من الملك -سبحانه وتعالى-.

فالشرع جاء بضبط هذه الشهوات وبضبط هذه المشاعر لا بنفيها ومنعها، لذلك الذين أرادوا أن يتبتلوا من الصحابة نهاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، الدين دين متكامل.

وهكذا نجد في الحضارة الغربية، كل فترة تخرج شهوة جديدة ولا يشبعون أبدًا، لذلك هذا الملمح موجود في سورة هود بصورة أوضح، قال ربنا -سبحانه وتعالى- عن قوم لوط لما علموا أن الأضياف أتوا، وكان الملائكة في هيئة رجال حسان، أنهم أتوه مسرعين: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾[هود ٧٨]...هل يعرف أحدكم تكملة الآية؟! ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

قال بعض العلماء من معاني الفعل ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ بضم الياء-وليس يَهرِع بفتح الياء-إذ معناه بفتحها: يجري، لكن يُهرع بضمها معناه: يُدفع.

وقالوا فعل يُهرع هذا يأتي غالبًا مبنيًا للمجهول، وجاء في القرآن مرتين مبنيًا للمجهول، وكأن هناك إنسان وهناك قوة خارجية تَدفع الذي يسير في الشهوة، وهناك أحد يسيطر عليه، كما قال الله قول الشيطان: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾[الإسراء ٦٢]، فالشيطان يقول أنه سيقودهم إلى الشهوات كأنه يضع اللجام في الحنك، فهو الذي يقودهم إلى الشهوة، وهو الذي يسيطر على عقولهم، فكأن الذي يَسِير في الشهوات لا يسير بإرادته إنما هو يُدفع دفعًا.

وقال بعض أهل العلم أن هذا الفعل لغة: يأتي مع الأسير الذي يُدفع ليُقْتل، ويُدْفع إلى حَتْفه ولا يستطيع الفرار، مشهد الأسير وهو مربوط ويُدفع ليُذبح والأسير يَسير في اتجاه مكان الذبح ولا يستطيع الفرار، قالوا في هذا المكان يقال : يُهرع الأسير إلى الذبح أي: يُدفع دفعًا.

فكأن الذي يسير في الشهوة يُدفع دفعًا إلى حتفه ولا يستطيع أن يَنْفلت من احتناك الشيطان له.

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود ٧٨].

بعض أهل العلم قال: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ بمعنى أنهم كانوا قبل أن يأتوا إلى لوط كانوا بالفعل يقومون بالفاحشة، ثم أتوا ليمارسوا فاحشةً أخرى، وكأنهم لم ولن يشبعوا أبدًا من الفحشاء؛ لأن هذه

الشهوات الحرام لا تروي غليل الإنسان، طالما أن الإنسان يسير في الحرام فإن الشهوة لا تتوقف عند حد أبدًا.

وكذلك نرى الآن ابتكارًا في الشهوات، ووصل الأمر والعياذ بالله إلى أمور فيها فجور في الشهوة، والأمر لن يتوقف، كل فترة ستجد اختراعًا جديدًا، وفكرة جديدة للشهوات، وهي بالطبع حرام، هذا الطريق ليس له نهاية لذلك قال لهم لوط: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[الأعراف ٨١].

وإن كان بعض أهل العلم ذكر أن السيئات في الآية: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ٧٨]؛ أيّ: الشرك، أي أضافوا إلى الفاحشة الشرك، لكن اختيار كثير من المفسرين: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: ومن قبل كانوا يعملون الفاحشة...فبالرغم من أنهم مارسوا الفاحشة، واعتادوا عليها إلا أنه وبمجرد وجود الأضياف لم يشبعوا من الفاحشة، فهكذا الذي يسير في طريق الشهوة بعيدًا عن مراد الله –سبحانه وتعالى– لن يشبع أبدًا.

فمثلا تجد الإنسان يبدأ بمجرد أن يدخل لموقع إباحي، ثم ينتقل الأمر إلي أنه يبحث عن ذلك في الواقع، ثم ينتقل الأمر ولا يشبع أبدًا أبدًا إلا أن يتوقف هذا الأمر ويبتعد تمامًا عن أماكن المعصية، ثم يتجه إلى الصيام أو إلى الزواج، لن تتوقف أبدًا، الشهوة الحرام ليس لها حد أبدًا لا يشبع الإنسان منها.

فقال لهم لوط: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[الأعراف ٨١]؛ هذا خُلُق فيكم، الإسراف في الشهوات، كما نرى الآن في المجتمعات الغربية حينما نُزِعَت منها القِيم والأخلاق والعقائد آل حالهم الآن –والعياذ بالله– أن نزلوا في الشهوات إلى مرتبة من البهيمية، والعياذ بالله تجد وكأنهم نزلوا عن مرتبة الإنسان في ممارسة الشهوات.

فلما واجههم، وأنكر عليهم بأنهم أول من ساروا في هذا الطريق، وأول من ابتكروا هذه الفاحشة، وأنهم يعيشون في حالة من الإسراف في الشهوات، فما كان ردهم؟!

لن يستطيعوا أن يدافعوا عن هذه الشهوة، بالرغم من أنهم الآن –في عالمنا– يدافعون عنها، فمسألة الشذوذ يُدافع عنها الآن!، لكن هم لم يدافعوا عن هذا، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ –بدلا أن يردُّوا عليه– ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾[الأعراف ٨٢]؛ الحلُّ أنَّنا سنقوم بطرد لوطًا و من معه!!!

ويقال أنَّ لوطًا لم يكن من أصل هذه القبيلة، ولكنَّه ناسبهم -أي صار صهرًا لهم، وتزوَّج منهم- ليدعوهم إلى الله -سبحانه وتعالى-، فطردوه وقالوا له: أنت أصلًا لست من القبيلة، ونحن سنحرِمك حقَّ المواطنة، سنسحب منك الجنسية ونطردك!

قالوا: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ لماذا؟! لماذا تُخرجونهم؟!.الإجابة: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

(إنَّ) غالبًا عندما تأتي بعد أمر أو نهي تفيد التعليل، أي العلَّة، سنخرجكم لأنكم أناس تتطهرون.

الذي يسمع هذا الكلام سيقول: هل هؤلاء الناس يسخرون أم يتكلمون بشكل جدي؟!

كأن يقال: نحن سنطردك من العمل لأنك لست مرتشيًا، لن يصلح لفلان أن يبقى في الوزارة لأنه لا يسرق، هل تتخيَّل أنه من الممكن أن يُطرد إنسان من مكان لأنه يتنزَّه عن المعصية؟! الذنب الذي قام به أنه مُتنزِّهٌ عن المعصية!!!حسنًا، لماذا يطردونه؟!

غالبًا الذي يقوم بمعصية لا يريد أن يكون عنده أحد شريف يذكّره بذنبه، لو نحن مثلًا نعمل في مصلحة حكوميّة ومكاتب، وهناك فرد معيَّن هو الذي لا يأخذ رشوة، فيأتي الداخل يريد عمل مصلحة، فالكل بمجرَّد دخوله يخافون ممن؟! مِن الذي لا يأخذ رشوة، خائفين من أن يذهب له، وبذلك هو يضيّع عليهم الرشوة، وجوده دائمًا منغّصٌ عليهم، يذكّرهم أنَّهم مذنبون، وتجد دائمًا أنَّ هناك مُناكَفات معه، بمجرَّد أن يقوموا بطرده تجد الجميع مرتاحًا، لا أحد يمسك شيئًا على الآخرين، الكل مذنبون وسيئون معًا: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[النساء ٨٩]، أي نكون مثل بعضنا البعض، لا أحد يقول لك: لا تدّعي، وتتظاهر أمامي أنك صالح، لا، لا، دعنا نكن جميعًا مثل بعضنا البعض أفضل.

فبعضهم قال أنهم بقولهم: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف ٨٢]، هم يتكلمون بشكل جدي، وليس استهزاء، فالمفسرون اختلفوا وقالوا: هل هذا الكلام استهزاء أم أنهم يتكلمون بجدية؟!

بعضهم قال: هم يتكلَّمون بقمَّة الجديَّة، قالوا: هؤلاء لا يمكن أن يبقوا وَسَطنا، فهم يجعلون منظرنا سيئًا، يُذكِّروننا دائمًا بقضية التطهُّر والعيب والحرام والمبادئ، هؤلاء يجب أن يختفوا تمامًا حتى لا يعد هناك من يذكّرنا بهذا الكلام ولا نشعر بتأنيب الضمير!

فتجد أن الإنسان الذي يريد أن يُصلح في واقع فاسد مليء بالفساد غالبًا يُحارَب، لماذا؟! لأنه يكون منفردًا، مجرَّد وجودِه علامة على فساد هؤلاء، فحتى لو سكت هم لا يستطيعون أن يتحمَّلوا وجوده أبدًا بينهم، وهذا في كل شيء، انظر إلى أي مكان وفي أي تعامل، لو إنسان أراد أن يتعامل بمبادئ وأخلاق وبما يرضي الملك -سبحانه وتعالى- تجد أغلب من حوله إذا كانوا في حالة من الفساد وفي واقع فاسد يطردونه مباشرة.

وأنت أحيانا كثيرة تسأل: لِمَ لَمْ يصلح فلان لذلك العمل؟!

فيقول: فلان لا يستطيع أن يساير المكان، ولا يتناسب معه، هناك أماكن معيَّنة ووظائف معيَّنة تحتاج مواهب معيَّنة، فيجب أن تكون عندك مواهب تناسب هذا المكان، كما ذكرنا من قبل موهبة اسمها: موهبة أحمد موسى مثلًا، أن يكون فلان عنده هذه الموهبة ممتلا!

طالما ليست عنده هذه الموهبة فلا يستطيع أن يؤدي هذه الوظيفة، فوجود الصالح دائمًا يذكِّر الناس أنَّ فلانًا يتطهَّر، وأن فلانًا يتنزَّه، فيذكّرهم بأنهم واقعون في المعصية.

وقال بعض أهل العلم: أنهم قالوها استهزاءً، ذكر ذلك الزمخشري والرازي وغيرهم، عندما تكون مجموعة مثلًا يجلسون مع بعضهم ويريدون أن يتناولوا الخمر أو المخدرات أو غيرها، فيقولون: "أبعِدوا عنَّا هذا الزاهد، قُم يا مؤمن، تعال وخذنا على جناحك، ألست من المتطهّرين؟!"

يستهزئون عن طريق ذكر الطاعات، حتى نصَّ على ذلك الزمخشري وغيره من المفسرين، قال يقولون له: "تعال أيها المتقشِّف الزاهد".

وتجد بعض الناس تستهزئ بذِكر علامة من علامات الطاعة، وكأنَّهم يتفاخرون أنَّك لست على درجةٍ من القوَّة أن تجلس معنا في مجلس المعصية، "أنت ما زلت صغيرًا على هذا الكلام"، "قُم يا مؤمن من هنا"، "أنت لا شأن لك بهذا"...فهذا نوع من الاستهزاء؛ "أخرِجوهم من بيننا إنهم لا يستطيعون أن يمارسوا الفاحشة!"،

هذا ضغط أحيانًا تقوم به الصحبة السيئة على الشخص الذي يريد أن يحافظ على دينه وعلى نقاء قلبه، يضغطون عليه بأن يقولوا له: "أنت ضعيف، أنت مؤمن، أنت لا تستطيع أن تأتي معنا". ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف ٨٢].

فإذًا قاعدةٌ هامَّة:أنّ المصلح لن يواجه بالإنكار فقط وإنَّما سيخرجونه، سيواجه غالبًا بالطَّرد، لابدَّ أن يوطِّن المصلح نفسه على ذلك، بأنّه سيواجه بحالة من الطرد من هذا المجتمع.

وكلمة: يتطهَّر؛ فيها صيغة مبالغة، كأنّهم يتعجبون: "لم يمارسوا الفاحشة قطُّ!"، فأحيانًا عندما تجد إنسانًا ظلَّ فترة طويلة في المعصية، ثمَّ يقابل إنسانًا لم يفعل هذه المعصية أبدًا يتعجَّب، "معقولٌ أنَّك لم ترتكب هذه المعصية أبدًا!"، يتعجَّب.

وللأسف هذا يحدث حينما يكون الإنسان غارقًا في المعصية، ثمَّ يُطلب منه أن يترك هذه المعصية، فهو لا يتصوَّر حياته دون هذه المعصية.

بعض الناس -نسأل الله السلامة والعافية- استمرَّ طويلًا في المعاصي، فيُطلب منه أن يترك هذه المعصية، هو لا يتخيَّل أن هناك أناسًا حقيقيّين على وجه الأرض يعيشون دون هذه المعاصي، يقول: "كيف؟! كيف نعيش؟! هل هناك من يعيش بغير زنا أو خمر؟!"، والعياذ بالله شخص غارق في هذه المعاصي، فلا يتخيَّل حياة دون هذه المعاصي...فهم يتعجَّبون، وذكروها بصيغة المبالغة.

وفي لفظة: ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ يؤكِّدون على ذلك الفعل الذي وصفوا به أهل الإيمان، وذكرهم للفظة: ﴿أُنَاسٞ﴾؛ أي: هل يُعقل أنهم بشر مثلنا وليسوا ملائكة؟!... ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الأعراف: ٨٢]؛ أخرجوهم حتى نستريح منهم.

قاعدة: غالبًا ما قام قومٌ بإخراج نبيِّهم من بين أظهُرِهم إلا عاقبهم الله -عز وجل-.

قال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[الأعراف ٨٣]

امرأة لوط كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- أنَّها كانت من الكافرين -كما ذكر في سورة التحريم-، فامرأة لوط لم تكتفِ بالكفر فقط؛ ولكن كانت تساعد الرجال على هذه الفاحشة والعياذ بالله، فلذلك قال بعض أهل العلم: لماذا قال ربنا ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ولم يقل كانت من الغابرات؟!..**الغابرين**: الباقين في العذاب الذين تُركوا في القرية ونزل عليهم العذاب، تركها لوط -عليه السلام- ولم يأخذها معه.

وقال بعض أهل العلم أنَّها خرجت ولكن حينما أمرهم ربُّهم ألَّا يلتفت منكم أحد، وقال لوط لا يلتفت منكم أحد، التفتت امرأته حزنًا على قومها فأصابها ما أصابهم...أيًا كان، لماذا قال ربنا: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ولم يقل كانت من الغابرات؟! بالرغم من أن كان هناك نساء عُذِّبوا في قوم لوط!

قيل: لأنَّها كانت تساعد الرجال في هذه الفاحشة فحُشِرت معهم، حتى ذكرت ضمن جمع المذكر السالم فكانت معهم، فمن عاش على شيء مات عليه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

❖ ماذا كانت العقوبة؟!

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾، وجاءت مطرًا نكرة، وصيغة النكرة تفيد التهويل والتعظيم؛ مطرًا ليس كأيِّ مطر: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأعراف ٨٤]، يرسل الله العذاب على الذين قاموا بهذه الفاحشة، وكأنّ السبب الرئيسي لإهلاكهم ليس الشرك، وهذا قول بعض أهل العلم: أنهم لما أضافوا إلى الشرك هذه الفاحشة استحقوا نزول العذاب عليهم.

الله -عز وجل- يُنزّل عليهم مطرًا حجارة من سجيل تنزل على رؤوسهم فتحرقهم وتدمرهم، ويرفع الأرض ويقلبها، لذلك سميت بالمؤتفِكات لأنَّها قُلِبت، ثم يأتي أناسٌ في هذا الزمان يُدافعون ويتكلَّمون بمنتهى البرود عن هذه الفاحشة!!!

يقول: "ما المشكلة؟! الأمر عادي!"، بل يريدون أن يقوموا بتشريع ذلك، تخيَّل أن هناك دولًا الآن تقوم بتشريع ذلك في دساتيرها!

الله -عز وجل- يعذِّب هؤلاء، والأئمة -كل الأئمة- متَّفقون على أنَّ هذه كبيرة، ويختلفون في حكم الفاعل سواءً أن يُحرَق أو يُرجم أو يُلقى عن حائط أو أن يقتل، غالب العلماء والفقهاء اتَّفقوا على قتله، أيّا كانت الطريقة، وبعضهم قال: بالتعزير وبالنفي.

الشاهد أنَّها أمرٌ مُنكَر عند الله –عز وجل–، وتجد الآن من يخرج علينا يتكلم أنه أمر لا بدَّ أن يُقبل، وأن هذا شيء عادي، بل يضعون في التشريع أن مثل هذه الفاحشة لا بدَّ أن نقبلها ولا يُعيَّر بها أحد!!! ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأعراف ٨٤].

¤¤¤¤¤¤¤¤¤

ثم قال ربنا –سبحانه وتعالى–: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾[الأعراف ٨٥]؛ ومدين: اسم قبيلة، وقيل أنه اسم رجل، أي: وأرسلنا إلى هذه القبيلة أخاهم شعيبا، نفس الكلام على كلمة: أخاهم؛ أي منهم، يتكلَّم بلسانهم، يعلم أحوالهم، ويعلم احتياجاتهم.

وبدأ معهم نبي الله شعيب بدعوة التوحيد: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. أهل العلم اختلفوا كيف يقول سيدنا شعيب لهم: قد جاءتكم بيّنة من ربِّكم؟! هل سيدنا شعيب كان معه آية؟! أكان معه معجزة أم لم يكن معه؟!

بعض أهل العلم قال: كان معه معجزة ولم نعرفها ولم ينص عليها القرآن، وكثير من الأنبياء كان معهم معجزات ولم يقُصَّها القرآن علينا، بل أيضًا هناك رسل و أنبياء لم يقصَّ الله –عز وجل– علينا قصصهم في القرآن: ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾[غافر ٧٨]

فبعض أهل العلم من المفسرين: قالوا كان معه معجزة أثبتت نبوته بدليل: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[الأعراف ٧٣]، ولم يُنكِر قومه ذلك ولم يقولوا له: "ما جئتنا ببينة"، كقوم هود مثلًا، في سورة هود لما قالوا له: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾[هود ٥٣]، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾[هود ٥٤]، لكن هنا لما قال لهم: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾[الأعراف ٧٣] اعترفوا.

قال بعض أهل العلم: هذا من قوة المحجَّة وقوَّة الحُجَّة مع شعيب، حتى روي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– سماه ب"خطيب الأنبياء"، كما ورد عن كثير من السلف، لحسن مراجعته لقومه؛ وبأنه ناظرهم كما في سورة هود، والمناظرة في سورة هود أطول وأعمق من هنا، وفيها نقاط أكثر...فقالوا: أقام عليهم الحجَّة بدعوتهم للتوحيد فلم يستطيعوا الإنكار فاعترفوا وأقرُّوا؛ لذلك انتقلوا مباشرة من المجادلة معه، إذ لم يجادلوه في هذه السورة وانتقلوا إلى التهديد مباشرة.

سيدنا شعيب تكلم في ثلاثة أرباع صفحة من السورة، لكنهم قالوا كلمة واحدة وكانت أول كلمة قالوها: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾[الأعراف ٨٨]؛ فكأنَّه اعتراف منهم أنهم لا يملكون الحُجَّة ولا الرد على كلام شعيب.

ثم انتقل أيضًا إلى أمر من فروع الشريعة، فنجد كما أن الأقوام يطورون في الرد، فالأنبياء أيضًا هنا يضيفون كلامًا آخر غير الكلام عن التوحيد، بمعنى مثلًا أن سيدنا لوط تكلم عن نبذ وترك هذه الفاحشة، وهنا أيضًا سيدنا شعيب يتكلم عن قضية المعاملات المالية، وهذا يدل على شمول الدين، لذلك هم تعجبوا لما قال لهم : ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[هود ٨٥] في سورة هود، تعجبوا وقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[هود ٨٧].

هم مستغربون؛ ما علاقة الصلاة بالمعاملات المالية ؟! تريد أن تصلي صلّ، ما علاقة الصلاة بهذا؟!..هذه في سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، تريد أن تصلي كحرية شخصية صلِّ؛ لكن ما علاقة الصلاة بتغيير أحوال المجتمع؟!

هذا هو الفكر العلماني الذي يريد أن يفصل الصلاة والعبادة عن بقية المعاملات، لا... فالدين متكامل، لذلك انتقل سيدنا شعيب مباشرة بعد التوحيد إلى الكلام في المعاملات المالية، ***فالشريعة تؤخذ جملَة واحدة، لا تُجزأ، تجزئة الدين هذا من أخلاق الرافضين لشرع الله –عز وجل–، وصفهم الله –عز وجل بالكفر–***: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾[البقرة ٨٥]، هذه التجزئة يُبْغِضُها الله –عز وجل– ولا يرضاها لشرعه.

فقال مباشرة بالفاء: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[الأعراف ٨٥]، **نجد أن المطالب التي طلبها شعيب تنتظم في ثلاث أمور:**

أولًا: حفظ المال.

ثانيًا: حفظ الصلاح العام.

ثالثًا: حرية التدين، أن يتركوا الذي يريد أن يؤمن دون أن يعذبوه أو يعوقوه عن الإيمان.

طلب منهم ثلاث مطالب تنتظم في هذه المطالب الثلاث: في المعاملات المالية، في الإصلاح وعدم الإفساد، وفي أن يتركوا للناس حرية الاستهداء كما سماها بعض أهل العلم، فالذي يريد الهداية عليهم أن يتركوه وألا يؤذوه.

طلب منهم هذه **المطالب الثلاث**، وهي مطالب مُعتَبَرة عقلًا وشرعًا.

- **الطلب الأول**: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[الأعراف ٨٥].
- **الطلب الثاني**: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[الأعراف: ٨٥].
- **الطلب الثالث**: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأعراف ٨٦]

- إذًا **الطلب الأول**: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[الأعراف ٨٥]؛ وأن يُوفِّي الإنسان أي أن يعطي الأمر كاملًا، ويستوفي الشيء: يأخذه كاملًا.

فأوفوا الكيل والميزان: الخطاب هنا للبائع، وسيدنا شعيب يخاطب بائع ومشتري، يقول للبائع: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، ويقول للمشتري: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾. هذا الخطاب يكون في السوق، وهذا يدل على أن الداعية لابد أن يَغْزوَ هذه الأماكن، فيما يروى –وإن كان في السند ضعف– أنه لما نزلت سورة المطففين نزل النبي –صلى الله عليه وسلم– وقرأها في السوق، لأن هذه الأوامر لم تأتِ إلا لمن يعمل بالتجارة، فحينما لا أخاطب بها التجار من الذي سيستفيد من هذه الأوامر إذًا؟!

فقال للبائع: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي أعطه حقه وافيًا، عندما تَزِنْ له شيئًا اجعل الكيلو كيلو وليس الكيلو كيلو إلا ربع، طلب منك كيلو أعط له كيلوًا كاملًا...وقال للمشتري: ألا يبخسه حقه، البائع يقول له مثلًا هذه بعشرة جنيهات فيقول المشتري: لا باثنين جنيه، أي عند المفاصلة، يفاصل ولكن لا يبخس الناس حقوقهم.

فبعض أهل العلم قال: هذا الخطاب خطاب للبائع وخطاب للمشتري، وهذا فيه توازن فلا يخاطب البائع ويترك المشتري ولا يخاطب المشتري ويترك البائع، بل يخاطب كلاهما.

واستنبط بعض أهل العلم أيضًا هنا قاعدة في المعاملات -كما قالوا في التطفيف- أنه ليس في المعاملات المالية فقط...وايضا في قوله تعالى ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾

هذه القاعدة مهمة جدًا، ولا سيما في هذه الأزمنة، والإنصاف عزيز، والعدل يغيب في كثير من الأُطْرُوحات، **فالقاعدة العامة ألا نبخس ما عند الناس من أشياء**: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

الناس عندهم أشياء، وأشياء كلمة واسعة، من الممكن أن فلان عنده علم، وفلان جهد، وغيره فكر، وغيره حركة، وغيره جهد لنصرة الدين، أو أن فلانًا بذل شيئًا، فحينما نُقيِّم إنسانًا لا نبخسه شيئًا، ولا نبخس الشيء الذي عنده حقه.

لا نقول فلان ليس بعالم مطلقًا: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[البقرة ١١٣]

هو لا ينتقد جزئية معينة، فحينما ينتقد إنسانًا يقول أنه ليس على شيء مطلقًا، فهذا يبخس الناس حقوقهم، وهذا أمر مَنهيّ عنه على لسان شعيب، وعلى ألسنة كل الأنبياء، كيف يُبخس الإنسان حقه؟!

لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا أن من أكبر المعاصي التي تقع فيها المرأة- فتكون من أكثر أهل النار- أنها تكفر العشير ، قال: (يكفرن العشير، إن الرجل يحسن إليها الدهر ثم إذا أساء إليها قالت: ما رأيت منك خيراً قط)[٢]، تنفي نفيًا مطلقًا، لا تقول أنت اخطأت في الموقف الفلاني، لا، بل تقول "ما رأيت منك خيراً قط"، فهي هنا تبخسه حقه.

[٢] [عن عبدالله بن عباس:] خَسَفَتِ الشَّمْسُ على عَهْدِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى رَسولُ اللَّهِ ﷺ والنَّاسُ معهُ، فَقامَ قِيامًا طَوِيلًا نَحْوًا مِن سُورَةِ البَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ، فَقامَ قِيامًا طَوِيلًا، وهو دُونَ القِيامِ الأوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وهو دُونَ الرُّكُوعِ الأوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قامَ، فَقامَ قِيامًا طَوِيلًا، وهو دُونَ القِيامِ الأوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وهو دُونَ الرُّكُوعِ الأوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ، فَقامَ قِيامًا طَوِيلًا، وهو دُونَ القِيامِ الأوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وهو دُونَ الرُّكُوعِ الأوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وقدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَقالَ: إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتانِ مِن آياتِ اللَّهِ، لا يَخْسِفانِ لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، فَإذا رَأَيْتُمْ ذلكَ فاذْكُرُوا اللَّهَ. قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، رَأَيْناكَ تَناوَلْتَ شيئًا في مَقامِكَ هذا، ثُمَّ رَأَيْناكَ تَكَعْكَعْتَ؟ فَقالَ: إنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ، أوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَناوَلْتُ منها عُنْقُودًا، ولو أخَذْتُهُ لَأكَلْتُمْ منه ما بَقِيَتِ الدُّنْيا، ورَأَيْتُ النّارَ، فَلَمْ أرَ كاليَومِ مَنْظَرًا قَطُّ، ورَأَيْتُ أكْثَرَ أهْلِها النِّساءَ قالوا: لِمَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: بكُفْرِهِنَّ قيلَ: يَكْفُرْنَ باللَّهِ؟ قالَ: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحْسانَ، لو أحْسَنْتَ إلى إحْداهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شيئًا، قالَتْ: ما رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥١٩٧ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥١٩٧)، ومسلم (٩٠٧)

فالبخس هو: تقييم ناقص للشيء إما بظلم أو بباحتيا،وأن تبخس إنسان: ألا تعطيه حقه كاملًا في التقييم، وأن لا تعطيه مقداره كاملًا، هذا إما بسبب أنك تظلمه أو تحتال عليه، أي أنت تحتال عليه أو تظلمه مباشرة في وجهه.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[الأعراف: ٨٥]: قد تجد إنسانًا اليوم، حينما يقيّم جهود العاملين لنصرة دين الله –عز وجل– في العقود والأزمنة السابقة الذين تعرضوا لاضطهاد وتضييق، وعاشوا أزمات مادية وأمنية واجتماعية، وضحوا وبذلوا، يقيّمهم متكئًا على أريكته، فيقولها بسهولة بأنّهم لم يفعلوا شيئًا، وهو أصلًا لولا وجودهم لما كان موجودًا ولما تكلم، ولا انتشر هذا الدين.

نعم لديهم أخطاء كما قلنا أن موسى عليه السلام قال مقرًا: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الشعراء ٢٠] لكن هذا لا يمنع كونهم يستطيعون أن يتكلموا بالحق، كذلك اليوم تجد من ينتقد ما يسمى بالحركات الإسلامية أو الذين يعملون لدين الله –عز وجل–، مبخسًا لحقوقهم، تجده يبغي بحجة النقد، وهو حقيقة "نقض" بالضاد وهدم وليس نقدًا.

لابد للإنسان أن يكون عادلًا، إذا تكلم عن رجل ذكر مزاياه إلى جانب عيوبه، وبأنه أفاد في كذا وكذا، وبأن الظروف التي أحاطت به كذا وكذا، وكان يتعرض لضغوط كذا وكذا، وفعل كذا وكذا وكذا لنصرة دين الله –عز وجل–، ونحمد له ذلك، ولكنه أخطأ في كذا وكذا.

هذا هو منهج أهل العلم العدل في التقييم: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[الأعراف: ٨٥].

ثم غالبًا هذا البخس يؤدي إلى الفساد، لأن البغي يواجه ببغي، تجد إنسانًا بغى على شيخ أو على عالم أو على داعية أو على مجموعة من الناس، فجزاء بغيه يكون –غالبًا– أن يبغي عليه أناس آخرون كما بغى، – فلكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه كما يقول نيوتن–، فكما بغى يرد له هذا البغي.

وللأسف قل من ينصف، فيرد عليه ببغي، فيخرج مجموعة من أتباع كل منهما فيردون على بعضهم ببغي، وفلان يرد على فلان، والرد على الرد الذي رده فلان، والرد على الرد الذي على الرد الذي كان على رد

فلان، وهكذا تعيش هذه الأمة الإسلامية في هذه المأساة، ويضحك أعداؤنا منا وتذهب ريحنا ونتفرق، ونصبح نسائمًا في وجه العدو وعلى صدره فالبغي غالبًا يؤدي إلى الفساد ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[الأعراف ٨٥]

و كنا ذكرنا هذه الجملة بعد ما تكررت معنا في هذه السورة، فماذا قلنا في معنى الإفساد بعد الإصلاح؟!...ألا يذكر منكم أحد؟!

الإصلاح هنا يعني أن الله –عز وجل– أصلح الأرض ببعثة الأنبياء، فمعنى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ أي لا ترفضوا دعوة الأنبياء وتستمروا على الكفر رغم بعثة الأنبياء، فأعظم إصلاح للأرض هو السير على منهج الأنبياء، وأعظم إفساد للأرض هو المناوئة والمناكفة والإعراض عن منهج الأنبياء.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي في دينكم ودنياكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي إن كنتم مُصَدقيّ بذلك.

وأيضًا هناك معنى للآية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي أن إصلاح الكيل والميزان لا ينفع وحده بغير إيمان، فالدعوة هي في الأصل دعوة توحيد، ومن تبعات أو لوازم التوحيد أن تستقيموا في الكيل والميزان؛ فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي لا بد أن تضموا الإيمان إلى هذه الأخلاق.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[الأعراف ٨٦]

وقوم شعيب هنا –كما قال بعض أهل العلم– كانوا يتشبهون بالشيطان، فالشيطان قال في هذه السورة: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الأعراف ١٦]، وحتى سيدنا شعيب استعمل نفس اللفظ وكأنه يقول لهم لا تتشبهوا بالشيطان ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾[الأعراف ٨٦].

والقُعُود علامة على الاستمرار، والعزيمة، والملازمة؛ بحيث أنه هيئة بين الوقوف حتى لا يتعب، وبين النوم حتى لا يغفو؛ استعداد وملازمة، فانظر إلى جهد أهل الباطل لصرف الناس عن الدين!

وحينما يقرأ المؤمن هذه الآية لا بد أن ينشط للدعوة ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ﴾[النساء ١٠٤] فإذا ما كنت تعمل للدعوة فاعلم أن هناك أضعافًا من الناس يعملون لنصرة الباطل، لذلك لا بد أن تجتهد في الدعوة.

إذا سهرت ليلةً لتحضير درس، أو لمذاكرة مسألة علمية، أو لترتيب نشاط لبعض الشباب، أو غير ذلك، فتذكر أن هناك من يسهر أيضًا لمَناكَفة هذا الدين؛ فتَصَبّر واضغط على نفسك وتحمل، واعلم أنك إن كنت تتألم فهم أيضًا يتألمون، ولكنك ترجو من الله ما لا يرجون.

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾[الأعراف ٨٦]؛ قلنا أن القعود هو الملازمة والاستمرار والتهيؤ.

﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾؛ أي لا يتركون طريقًا مُوَصّلًا إلى شعيب إلا قطعوه، ونحن أيضًا لا بد لنا ألا نترك طريقًا يوصلنا إلى الناس لننتزعهم من الباطل إلا ونسلكه.

﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾ وهذه الباء باء الملاصقة والملازمة؛ أي: قعدوا ملاصقين ملازمين، وقسّموا أنفسهم فرقًا، كما في تفسير قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾[الحجر ٩٠] في سورة الحجر؛ حيث قالوا أنها إما من القَسم، أو من الاقتسام.

والذي قال أنها من الاقتسام؛ أي أنهم وزعوا أنفسهم طوائفًا وفرقًا؛ فلان مسؤول عن الجانب الإعلامي لهدم الدين، وفلان مسؤول عن الجانب العلمي -الشبهات-، وفلان مسؤول عن جانب الشهوات، وهذا سيهدم الدين عن طريق الطعن في البخاري، وذاك سيهدمه عن طريق الطعن في مسلم، وذاك عن طريق الطعن في أبي هريرة -وهذا في جانب الحديث فقط-، ثم هم يقتسمون ويقسمون أنفسهم طرقًا يوزعونها، وكل فريق قائم على ثغر وملازم وملاصق له. ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾[الأعراف ٨٦] فهم يوزعون أنفسهم على كل الطرق المؤدية إلى الإيمان، وهذه الطرق قد تكون حسية؛ بمعنى الطرق التي توصل إلى بيت شعيب، أو معنوية

كالمسجد مثلًا، فهم يريدون أن يخوفوا الناس من المساجد، أو من الإيمان وتَبِعاته؛ كما نذكر في تفسير ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٠]-الجانب الإعلامي-.

ومعنى أن سيدنا شعيب يقول هذا الكلام ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾[الأعراف ٨٦]؛ أنه يعلم ما يفعلون، فهو دارس لمنهج أهل الباطل، ويدري كيف يتحرك أهل الباطل ، وكذلك لا بد للدعاة أن يدرسوا الخطة التي يتحرك عليها أهل الباطل؛ حتى لا نسقط بسذاجة في أُطْرُوحَاتِهم وخُطتهم، ونُسْتَعْمَل من حيث لا نشعر.

ويقول شعيب عليه السلام أنهم يفعلون شيئين: ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾، وبعض أهل العلم فَصَلَهم عن بعض؛ أي: ﴿تُوعِدُونَ﴾ لها معنى، و﴿تَصُدُّونَ﴾لها معنى آخر -وهذا مَروي عن ابن عباس-.

﴿تُوعِدُونَ﴾: من تُوعِد، ومعناها: تُخَوّفه بالشر، والمفعول هنا محذوف؛ فربنا -سبحانه وتعالى- لم يقل توعدون بكذا، ولذلك قال كثير من أهل العلم بأن تُوعدونهم أي تهددونهم بالقتل؛ فقالوا أنه عندما يكون المفعول محذوفًا -كلمة القتل أو الشر- تأتي بعد التاء هذه الواو ﴿تُوعِدُونَ﴾، أما إذا ذكرت كلمة القتل والشر فتأتي تَعِدُونهم بالشر أو بالقتل. فلما حذف المفعول وكان مطلقًا جاءت الواو بعد التاء ﴿تُوعِدُونَ﴾، وقد حذف المفعول لأنهم كانوا يُهَدِّدُون بكل شيء؛ يُهددون بالقتل، والتعذيب، والتشريد، والأزمات الاقتصادية تهديدًا مطلقًا: الذي سيسير في هذا الطريق مُهَدد. ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

بالنسبة لـ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ سنتكلم عنها فيما بعد.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ قال بعض أهل العلم -مَرويّ عن ابن عباس-: أي تجلسون على الطريق، وكلما أراد أحد أن يسير إلى شعيب قلتم له إلى أين إنه كذاب!، وهذا المعنى مَرويّ أيضًا في ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[الحجر ٩٠]؛ حيث أنهم وزعوا الشبهات على مداخل مكة؛ أحدهم يقعد على المدخل الفلاني

ويقول ساحر، وآخر يقعد على المدخل الفلاني ويقول شاعر، وغيره يقعد على المدخل الثالث ويقول كاهن؛ أي قاموا بتوزيع الاتهامات وتوزيع الطرق.

وهنا كانوا يجلسون على كل طريق يفعلون شيئين: الأول: التهديد، والثاني: التنفير.

وقد قال بعض أهل العلم أن: ﴿تُوعِدُونَ﴾[الأعراف ٨٦] هي لمن صمم على الإيمان؛ فالذي صمم على أن يسير في هذا الطريق لن يُجْدِي معه إلا التهديد، بينما الذي لم يزل مترددًا ويفكر، يقولون له إلى أين أنت ذاهب؟، أتذهب إلى كذاب يخدعك، ويأمرك باتباع الدين وترك الشهوات؟، ستتغير حياتك وتكون من المستضعفين وتترك دينك ودين آبائك، وهكذا يظل كلام شياطين الإنس والجن يتردد في أذنه.

فإذًا؛ يوجد ضغط وتهديد بدني وإرجاف بالبدن، ويوجد إرجاف معنوي وهو الإعلام؛ وأهل الباطل يستعملون هاتين القوتين: قوة عسكرية بدنية -إذا صح التعبير-، وقوة إعلامية، وإذا أردنا أن نواجه أهل الباطل لا بد لنا من هاتين القوتين؛ فلا ننازع -ولا يُنازع كثير من الناس- في أهمية القوة الإعلامية، لكنها ستظل عرجاء بدون قوة لأهل الحق ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال ٦٠]...فهم تحركوا في اتجاهين؛ ولذلك سنجد أن الملأ الذين استكبروا قالوا كلامًا، والملأ الذين كفروا قالوا كلامًا آخر.

ففي الصفحة المقابلة نجد أن الملأ الذين استكبروا طرحوا طرحًا معينًا وهو التهديد، بينما الملأ الذين كفروا طرحوا طرحًا إعلاميًّا مختلفًا، فكأن قوم شعيب انقسموا قسمين: هؤلاء يُهَددون بشيء، وهؤلاء يُرْجفون بشيء آخر.

وشعيب كان على علم بما يفعلون،فقال: ﴿تُوعِدُونَ﴾[الأعراف ٨٦] لفريق منهم، و ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ للفريق الآخر.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: يُسمى مفعول به فيه؛ أي أن كلا الفعلين: ﴿تُوعِدُونَ﴾ ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ يتنازعان هذا المفعول، كما تقول مثلًا: "تسبح الله وتحمده وتكبره ثلاثًا و ثلاثين"، فيكون (ثلاثًا وثلاثين): مُتَنَازعًا ما بين التسبيح والتحميد والتكبير؛ بمعنى أن تفعل الأفعال الثلاثة ثلاثًا وثلاثين مرة.

فهنا: تُوعِدُونَ من آمن، وَتَصُدُّونَ من آمن أو من يريد الإيمان.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ تكلمنا عنها بالتفصيل وقد تكررت مرتين في هذه السورة.

﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾:

*إما تبغون لسبيل الله الاعوجاج بأن تتهموا الطريق بالشبهات وأن فيها زيغًا وميلًا عن الحق.

*أو كما قال بعضهم –وإن كان هذا القول بعيدًا قليلًا– أن هذه الهاء في ﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾ تعود على الجماعة المؤمنة؛ أي تتهمونهم وتريدون منهم الاعوجاج، وأن ينحرفوا عن الطريق.

ثم يقول لهم إن كنتم تستعملون القوة في صد الناس عن الحق فاذكروا أنكم كنتم مستضعفين، وأن الله –عز وجل– هو الذي أعطاكم القوة، وهو قادر على أن ينزعها منكم، فلا تستعملوا القوة في الصد عن سبيل الله ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ فمهما بلغتم من قوة، لا تَغرنَّكم هذه القوة، فانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من قبلكم من قوم لوط، وعاد، وثمود وغيرهم ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وكل ذلك كان خطابًا مستمرًا لشعيب دفعة واحدة، وفي الآية الأخيرة التي قالها ما يدل على أن الدعوة حققت نجاحًا:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ﴾[الأعراف ٨٧] فكأن المجتمع بدأ ينقسم تقريبًا إلى فريقين؛ فلم يَعُد الموضوع مجرد قلة صغيرة، بل أصبح هناك طائفة مقابل طائفة أخرى.

لذلك قيل في سورة هود –وإن كان هناك خلاف في ذلك– في معنى الرهط ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾[هود ٩١] أنها تعني:

*إما القوم الكفار الذين هم أقارب شعيب ويدافعون عنه، كما كان أبو طالب –وهو على كفره– يدافع عن النبي –صلى الله عليه وسلم–.

*أو الجماعة المؤمنة لأنهم أصبحوا كُثُرًا.

والشاهد هنا وجود مجموعة، أصبح فيها نوع من التزايد قليلًا؛ يقول ربنا -سبحانه وتعالى- على لسان شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾[الأعراف ٨٧] فبعد هذا الطرح القوي الذي قام به شعيب عليه السلام، انقسم المجتمع إلى فريقين: طائفة آمنت بشعيب، وطائفة أصرت على الكفر.

فقال لهم شعيب دعونا نتفق على ألا يؤذي بعضنا بعضًا، ونصبر حتى يحكم الله بيننا، ولم يتعجل الدعاء على قومه، ونزول العذاب عليهم؛ بل قال لهم: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾[الأعراف ٨٧]، كما قال هود من قبل: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[الأعراف ٧١].

وشعيب هنا قال اصبروا لأهل الايمان كي يصبروا، ولأهل الباطل أيضًا اصبروا علينا إذا كنتم تشعرون بِضيق، حتى يحكم الله بيننا، حيث لم يُشرع لهم الجهاد وسنتكلم عن قضية تشريع الجهاد عند قوله -سبحانه وتعالى- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾[الأعراف ١٠٣].

﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[الأعراف ٨٧] نحن نثق بحكمه -سبحانه وتعالى-؛ فهو سوف يحكم ويفصل بيننا، ونحن واثقون بحكمه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾[الأعراف ٨٨] فأهل الباطل لا يتحملون مجرد وجود أهل الإيمان فضلًا على أن يتحملوا دعوتهم، هم يضغطون على الدعاة كي يسكتوا فإذا ما سكتوا أخرجوهم، فالباطل ليس له نهاية ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ليس: "حتى تسكت" وإنما: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة ١٢٠] فهم لا يكتفون بمجرد السكوت.

هو يقول اصبروا حتى يحكم الله بيننا، ومباشرةً ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾[الأعراف ٨٨]؛ اختيارك أن نصبر على بعضنا البعض ليس من الاختيارات التي لدينا، فنحن لدينا اختياران فقط: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ أو ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، وليس هناك اختيار ثالث.

هكذا هي المواجهة الصريحة لأهل الباطل؛ إذا انكشف وجه الباطل الحقيقي ظهر هذا الكلام ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

وتتلخص وسائل تعامل أهل الباطل مع الداعية غالبًا في ثلاث وسائل، كما ذُكِرت في سورة الأنفال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال ٣٠]...

- ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: بمعنى أن يحبسوك في مكان تمكث فيه ولا تخرج منه، فتبقى ثابتًا، والداعية ينبغي أن يكون متحركًا، والدعوة متحركة ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام ١٢٢] فهذا النور جاء ليمشي به بين الناس، وهم يريدونه أن يكون ثابتًا...فإذا ما تحرك الداعية أخرجوه
- ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾[الأنفال ٣٠]، وإذا كَوّنَ الداعية طائفة كبيرة، وحدد مكانًا معينًا لينتقل إليه للدعوة فهم هنا يرفضون أن يخرج.

لذلك ففي مرحلة معينة أراد مشركو قريش إخراج النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة في البداية، لكن بعدما حدد مكانًا يذهب إليه -المدينة-، ومعه المهاجرون، وهناك طائفة الأنصار تنتظره رفضوا أن يخرج، وأرادوا قتله...

- ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾، لأنه بهذا سينقل الدعوة إلى مكان آخر.

أي أنهم يقومون بطرده قبل أن يُكَوِّن هذه النواة القوية، فإذا ما تكونت فإنهم ينتقلون إلى الخيار الثالث مباشرة -وهذا موجود في تفسير هذه الآية لمن أراد أن يراجع تفسيرها في سورة الأنفال-.

فهنا اختاروا الإخراج قبل أن تَكْبُر الدعوة، وتُحَقق نجاحًا كبيرًا، أو يحدد مكانًا آخر يذهب إليه أو طائفة تنصره ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[الأعلراف ٨٨] مع أن شعيب من هذه القرية؛ فربنا يقول في أول الآيات: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ﴾[الأعراف ٨٥]، والذين آمنوا من هذه القرية، فلماذا هي لكم؟

وقد قال صالح: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾[الأعراف ٧٣]؛ فالأرض أرض الله، وهي أحق أن تكون للطائعين وليست للكفار، وهم يقولون: "من قريتنا" أنهم هم أصحاب القرية، ويقول سيدنا شعيب لهم لا

يؤذي بعضنا بعضًا، وهم يرفضون ذلك، فأهل الباطل -كما قلنا- يخشون حتى من مجرد وجود الإيمان، أو مجرد قراءة القرآن ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت ٢٦].

فلمجرد أن سيدنا أبا بكرالصديق كان يقرأ القرآن في فناء داره، أرادوا أن يمنعونه من ذلك؛ فحتى وجود الأذان أو أي شعيرة من شعائر الدين التي تُذَكِّر الناس بالدين يرفضون وجودها.

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[الأعراف ٨٨] واللام لام القسم وهي جاءت مع الاختيارين الاثنين؛ أي نحن مصممون على اختيار واحد منهما: فإما أن نخرجك ، أو تكون مثلنا بالضبط ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة ١٢٠]... ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[الأعراف ٨٨] وهنا يوجد خلاف بين أهل العلم؛ فهل سيدنا شعيب كان معهم على الكفر ثم ترك الكفر بعد النبوة، أم أنه لم يكن معهم على الكفر؟ ولماذا قالوا له ذلك؟

وبعد هذا قال سيدنا شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾[الأعراف ٨٩]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ فهل كان على الكفر؟

والعلماء هنا انقسموا إلى أكثر من قول:

- فمنهم من قال بأن من كان على الكفر هم الأتباع الذين آمنوا، أما سيدنا شعيب فلم يكن على الكفر يومًا، لكنهم خاطبوه بما يسمى (خطاب التغليب)، فسيدنا شعيب في هذا المقام يعتبر نفسه واحدًا منهم، ويدافع عن أهل الإيمان، فهو خاطبهم على سبيل المشاكلة؛هم قالوا: "لتعودن" ويقصدون الأتباع، فقال لهم: "لن نعود".

- وقال بعض أهل العلم: أنهم قالوا هذا تدليسًا على العامة.

وأنا أريدك أن تتخيل هذا المشهد؛ فهو مهم جدًا: في أغلب الحوارات القرآنية بين الأنبياء والكفار، أو المستكبرين والمستضعفين -في حال كان المستضعفون من أهل الإيمان-، فهناك أتباع يجلسون ويشاهدون هذا المشهد، والملأ الذين استكبروا هنا يكلمون شعيبًا والمؤمنين و يخافون من أن يتأثر بقية الكفار المشركين بخطاب شعيب ويسيروا على طريقه؛ فلذلك انتفضوا ليخاطبوا شعيبًا وهددوه.

وقد ذكرنا أن الأمر أخذ يتطور معهم؛ فبعد أن وصفوه بالضلال، قالوا سفاهة، وبعد هذا عقروا الناقة، ثم انتقلوا إلى التهديد بالإخراج.

إذًا؛ قال بعض أهل العلم أن المراد هو الأتباع، وقال البعض الآخر بأن هذا مجرد تدليس منهم وهم لم يكونوا على هذه الملة، لكن هذا التأويل يخالفه قول شعيب نفسه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾.

- وقال بعض أهل العلم -وهذا اختيار كثير من المفسرين- أن (نعود) هنا أي: نصير إلى الكفر، ليس معناها بالضرورة أنه كان على الكفر؛ فعندما تقول: "أعود إلى كذا"، أو تقول -مثلًا-: "نريد أن نعود إلى الجنة"، ليس معناه أنك كنت موجودًا في الجنة، وإنما: نريد أن نذهب إلى الجنة، حيث قالوا أن فعل (يعود) لا يعني بالضرورة أنك فعلت نفس الفعل وتعود إليه مرة أخرى.

- بينما قال بعض أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه بالفعل كان معهم على الكفر، وإن كان هذا القول يخالف بعض جماهير المفسرين الذين ينزهون الأنبياء عن الشرك قبل البعثة، ومسألة عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها مسألة عقدية طويلة، وفيها خلاف طويل -ليس هذا محله- بين أهل السنة وبين الأشاعرة.

وقد ذكرت لكم هذه الأقوال حتى إذا أتيتم إلى هذا الموضع، وقرأتم فيه في التفاسير علمتم أن المسألة فيها خلاف، وأن الأمر فيه سعة، ولا يترتب عليه عمل؛ فكل هذا الخلاف هو خلافٌ كلامي.

قالوا: ﴿أَوَ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[الأعراف ٨٨]، فقال شعيب أولاً قبل أن يرد عليهم ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ الهمزة هي همزة الاستفهام، وهذه الواو (ولو كنا كارهين) هي واو الحال، وما بين همزة الاستفهام وجملة "ولو كنا كارهين" يوجد محذوف هنا؛ أي: أتجبروننا وتهددوننا وتضغطون علينا لنعود إلى الكفر، وحالنا أننا نكره الكفر؟، فأين شعارات الحرية والتقدم والحضارة؟ أين هي هذه الشعارات؟

ووصف الكره هنا مهم جدًا؛ لأن سيدنا شعيب يخاف على الطائفة المؤمنة التي معه فيدافع عنها، ويريد أن يستثير الإيمان بداخلهم.

وقضية كره الكفر وكره المعصية أمر مهم جدًّا، بل لا ينال الإنسان حلاوة الإيمان حتى يكره المعصية، ويكره الأماكن التي تذكره بها، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان) وقال في الثالثة (أن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار)[٣].

وهذه مرحلة إيمانية عالية، لا بد أن يسعى الإنسان إلى الوصول إليها؛ بحيث لا يجاهد نفسه ليبتعد عن أماكن المعصية فحسب، وإنما يصل إلى مرحلة يكره فيها هذه الأماكن.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ وتحدث بصيغة الجماعة بمعنى أننا كلنا كارهون، فشعيب يتحدث عن نفسه وعن الطائفة المؤمنة بأن الكل يكره أن يعود إلى الكفر، ثم قال كلمة من المهم جدًا جدًا أن يتعلمها الدعاة إلى الله؛ حيث قال:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾[الأعراف ٨٩]؛ شعيب هنا لم يقل قد أخطأنا إذا عدنا إلى الكفر، بل قال ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾؛ فتنازل الداعية عن جزء من

[٣] [عن أنس بن مالك:] ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: مَن كانَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ اللَّهُ منه، كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٤٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)

الدين نتيجة الضغط والتهديد ليس مجرد تمييع أو تنازل فحسب، وإنما هو نوع من افتراء الكذب على الله – إن لم يكن الأمر ضروريًّا–.

أكرر هذه القاعدة:(***(تنازل الداعية و إقراره بجزء من الباطل هو افتراء كذب على الله)***)؛ لأنه يمثل الدين، وابن القيم سمى المفتي: "الموقِّع عن الله"، فحينما يقول إنسان أنه يدعو إلى الله ،وشعيب نبي مبعوث من عند الله –عز وجل–، فكونه يتراجع؛ فكأنه اعترف بأن هذا الدين فيه خطأ؛ وهو في هذه اللحظة يفتري على الله الكذب.

إذًا؛ فالأمر خطير جدًّا، فالقضية ليست مجرد أن تتنازل لأهل الباطل عن جزء من الدين؛ لأنك في هذه اللحظة تفتري على الله الكذب؛ فالله لم يقل ذلك، وأنت تنسب إلى الله إقرار هذا الباطل؛ لأنك تتكلم الآن بصفة رسمية، وليس بصفتك الشخصية، فعندما تتكلم بصفتك كفرد قد تقول: أنا مستضعف ومغلوب على أمري، و سآخذ بالرخصة، و هذا ليس من الدين في شيء، أما عندما تتكلم كعالم، وتوصل إلى الناس أن هذا الباطل والظلم جزء من الدين؛ فأنت تفتري على الله الكذب.

فقولك هذا ليس مجرد رأي، وستحاسب حسابًا عظيمًا على ذلك، لأن هذا هو أعلى درجات الفحشاء والمنكر –كما ذكرت في هذه السورة بالترتيب– ومن أكبر الكبائر؛ أن يفتري الإنسان على الله الكذب والعياذ بالله.

فيقول: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾؛ أنعود بعد أن أكرمنا الله –عز وجل– بالإيمان؟!

﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾، لابد للإنسان أن يستحضر نعمة الهداية؛ فعندما يكون في المسجد –مثلًا– عليه أن يستحضر هذه النعمة؛ فغيره لا يقترب من المسجد، وقد تُسلب منه هذه النعمة، لذلك من إيمان شعيب أنه قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾[الأعراف ٨٩]؛ فنحن أتينا هنا إلى المسجد بمشيئته،

ولو أراد الله –عز وجل– أن يُزيغ قلوبنا لأزاغها، وهو يفعل ذلك بعدله؛ لأن وجودنا في بيئة الإيمان هو بفضله سبحانه، فيقول لهم: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، لكن استثنى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ فالله –عز وجل– أعلم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الضلال، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

إذاً؛ كيف لنا أن نواجههم؟

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ فسنواجههم بالدعاء، وقد فوَّضنا أمرنا إلى الله، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

وهنا يقول الإمام الطبري: "فزع شعيب إلى الدعاء بعدما أصر القوم على إخراجه"؛ أي أنهم قد استعجلوا؛ فقد قال لهم سيدنا شعيب في البداية: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾[الأعراف ٨٧]، لكنهم لما هدَّدوه بهذه الفِعلة، استعجلوا نزول العذاب، فدعا عليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف ٨٩].

فهم يقفون في طريق الدعوة، لذلك طلب شعيب الفتح أي الحكم والقضاء، وقد تعجَّل ذلك بسبب فعلتهم، و بسبب تهديدهم لأهل الإيمان، فأحيانًا يتعجَّل أهل الباطل نزول العذاب بأفعالهم.

وللأسف فهناك بعض الناس يستخدمون هذا الدعاء بشكل خاطئ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ فهذا دعاء لنزول العذاب.

﴿ ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ فنزل العذاب؛ يعني أزِلهم يا رب من طريقنا، لأنهم حجر عثرة، وكُدية في الطريق، فهم يطلبون من الله –عز وجل– أن يفتح هذا الطريق، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ اقضِ بيننا واحكم بيننا بالحق، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

إذًا؛ كما قلنا **فإن الملأ قد انقسموا إلى قسمين**: الملأ الذين استكبروا، والملأ الذين كفروا.

فالملأ الذين استكبروا قاموا نتيجة الاستكبار بالتهديد، بينما الملأ الذين كفروا قاموا بالضغط الإعلامي ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾[الأعراف ٩٠]، وقال بعض أهل العلم هنا أنهم اتجهوا إلى بقية المشركين؛ أي أن الملأ الذين استكبروا أخذوا الخطوة وهدّدوا شعيبًا والذين معه، ففوجئوا بالرد، وفوجئوا بثبات شعيب ومن معه، ولما أيقنوا ثباتهم، أيقنوا بأن هذا الطريق مغلق.

وهنا ما الذي نستفيده من هذه النقطة ؟

لا بد أن تعلم أن أهل الباطل سيستمرون في إغوائك إذا ما فتحت لهم الباب، وإذا حاول معك، ووجد عندك استعدادًا للتنازل أو أنك تنازلت بالفعل، فإنه يبدأ يطلب منك أكثر، أما إذا ما أغلقت الباب من البداية، ورفضت، ووجدك تقول ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف ٨٨-٨٩] فما الذي يستطيع فعله أمام هذا الخطاب؟

وهنا عندما فوجئوا بهذا الخطاب أيقنوا بأنه لا يمكنهم فعل شيء مع شعيب والذين آمنوا معه، فالحل إذًا أن نحافظ على رأس المال المتبقي معنا؛ أي: نحافظ على بقية المشركين الذين يسمعون كلامنا، فنذهب ونفرض عليهم حصارًا إعلاميًّا، ونقول لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٠]؛ هل تريدون أن تكونوا كأولئك المستضعفين؟ انظروا كيف نهدّدهم بالتّقتيل والإخراج ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

وقال بعض أهل العلم في: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: تخسرون المكسب المادي الذي تحققونه من التطفيف في المكيال والميزان؛ فالباطل أحياناً يؤدي إلى نوع من الثمرات الدنيوية العاجلة؛ فالمعصية قد تأتي بالأموال كالربا، وقد تحقق بعض الشهوات، فهو عندما يريد أن يحسَّرك على ترك المعصية، يقول لك: انظر كم خسرت! لو كنت مازلت تتعامل بالربا لكان معك من الأموال كذا وكذا، ولكنت الآن تستمتع بقضاء الشهوات.

فهنا ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لو سمعتم كلام شعيب ستخسرون التطفيف في الكيل والميزان، وتخسرون المكسب المادي والشهوات، ستخسرون كل شيء؛ تهديد إعلامي.

فهم إذًا؛ **انقسموا فريقين**:قسم قام بالتهديد الأمني، وقسم قام بالتهديد الإعلامي والإرجاف، والقسم الأول قام بذلك مع المؤمنين، والآخر مع من يفكّر في الإيمان.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾، و(إن) تأتي للشك، فهم يشككون في ذلك أصلًا؛ أنا أشك أنك ستمشي في طريق شعيب، لكن إن فكرت بذلك فأنا أقول لك بأن النتيجة هي أنك خاسر؛ ﴿إِنَّكُمْ﴾ هنا للتأكيد، وأقحموا كلمة (إذًا)، و(لام التأكيد) ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

فقال ربنا –سبحانه وتعالى– طالما أنهم وصلوا إلى هذه المرحلة، ولم ينجح معهم شيء، وأصَّروا على التهديد– : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[الأعراف ٩١]، وقد تكلمنا عن (الرجفة) في المرة السابقة، وعن رجف القلوب أو رجف الأرض.

ونجد أن عذاب قوم شعيب قد ذُكر في **ثلاثة مواطن بثلاثة أنواع مختلفة**من العذاب:

- في سورة الأعراف: الرجفة.
- وفي سورة هود: الصيحة.
- وفي سورة الشعراء: عذاب يوم الظُّلَّة.

وقد ذكر ابن كثير ترابطًا جميلًا بينها؛ فقال: في سورة الأعراف: لما كانوا يهدّدون الناس ويقومون بالإرجاف جاء عذاب الرجفة، وفي سورة هود، لما قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾[هود ٨٧] وتكلموا عن الصلاة أسكتهم الله بالصيحة، وفي الشعراء طلبوا أن ينزل العذاب كسفًا من السماء، فنزل العذاب من سحابة من الظلة.

فقال: اجتمع عليهم كل أنواع العذاب؛ كِسَف من السماء ينزل من هذه الظلة من السحابة، والأرض ترجف، وصاعقة وصيحة تأخذهم، فاجتمع عليهم كل ألوان العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[الأعراف ٩١].

وكان من المتوقع أن يقول ربنا: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي شعيب، ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾[الأعراف ٩٣]؛ لأن العذاب قد نزل وانتهى الأمر، لكن يوجد هنا جملة مهمة جدًا: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٩٢] لماذا؟

لأنهم كانوا يهددون ويقولون: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف ٩٠]، فيخبرنا ربنا من هو الخاسر؟، وكأن هذا سؤال: أعرفتم الآن من الخاسر؟، والإجابة: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ﴾[الأعراف ٩٢]؛ أي للتخصيص؛ فقد كانوا هم فقط ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾وليس من آمن مع شعيب.

وهذه الحقيقة قد لا يصدقها كثير من الناس إلا إذا رآها بعينه، مثلما قال أهل العلم في زمان قارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص ٨٠] فلم يصدقوهم، فلما رأوا الخسف بأعينهم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾[القصص ٨٢]؛ فهم صدَّقوا لكن بعد رؤية نزول العذاب.

أما أهل الإيمان فهم يؤمنون بالغيب، ويصدّقون أن الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ ، أو أي نبي من الأنبياء هم الخاسرون، فلا ننتظر نزول العذاب حتى نقرّ بهذه القاعدة –فهذه القاعدة تأتي لمن يشك في ذلك– حتى إن تأخر نزول العذاب أو تأخرت نصرة الله –عز وجل– لأوليائه لحكمة منه –سبحانه وتعالى–.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾[الأعراف ٩٢]: يغنى بمعنى أقام في المكان وعاش متنعمًا، كما قال ابن عطية بعدما استقرأ أشعار العرب؛ حيث وجد أن هذه الكلمة تأتي لمن يقيم في المكان ويعيش فيه متنعمًا،

فيقول الله –عز وجل–: الذي كذَّب شعيبًا كأنه لم يُقِم في هذا المكان، ولم يذق نعمة من النعيم ولو مرة واحدة!؛ وهذه هي عاقبة المعصية؛ تأتي على كل نعيم.

كما قال النبي ﷺ: (يؤتى بالرجل وهو من أنعم أهل الدنيا ويُغمس غمسة واحدة في النار، فيقال له: هل ذقت نعيمًا قط؟، فيقول: لا والله يا رب)[٤].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: أعرض عنهم شعيب، ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[الأعراف ٩٣]، وقد قال بعض أهل العلم بأن شعيبًا وجد في نفسه، وأحس بنوع من أنواع التحسُّر والحزن على قومه، فخاطب نفسه؛ وهذا يعتبرونه **نوعًا من التجريد**؛ كأنه يخرِّج شخصًا من نفسه ويكلمه، فخاطب نفسه حتى يثبّت نفسه: كيف تحزن وهم أعرضوا عن النُّصح؟! ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾؟!

فأحيانًا قد تخونك مشاعرك عندما تجد عذاب الله ينزل على الكفار؛ فتقول: يجب أن نتعاطف معهم، وهنا لا بد أن تتدارك نفسك، وتذكّرها بمعايير الشرع، لا بمعاييرك العاطفية؛ فتقول: هم كفار وقد أعرضوا؛ جاءتهم الرسالة، وأصروا واستكبروا وكفروا وهدَّدوا، إذًا هم يستحقون نزول العذاب، فلا بد أن تراجع تقييم مشاعرك، لماذا حزنت على هذا؟ وهل هذا هو مراد الشرع؟.

فلما وجد شعيب في نفسه هذه الحسرة خاطب نفسه، كما قال بعض أهل العلم، وقال البعض الآخر أنه كان يخاطبهم بعدما ماتوا، كما فعل صالح، وكما فعل النبي ﷺ بعد غزوة بدر؛ حيث خاطب المشركين وهم موتى، وقال لهم: (لقد وجدت ما وعدني ربي حقًا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟)[٥].

---

[٤] [عن أنس بن مالك:] يُؤْتى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا مِن أهْلِ النّارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ويُؤْتى بأَشَدِّ النّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا، مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨٠٧ • [صحيح]

[٥] [عن عائشة أم المؤمنين:] أمَر رسولُ اللهِ ﷺ بقَتْلى بَدْرٍ فسُحِبوا إلى القَليبِ فطُرِحوا فيه ثمَّ جاء حتّى وقَف عليهم فقال: (يا أهلَ القَليبِ هل وجَدْتُم ما وعَد ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي وجَدْتُ ما وعَدني ربِّي حقًّا) قالوا: يا رسولَ اللهِ تُكلِّمُ قومًا مَوْتى؟ ! قال: (لقد علِموا أنَّ ما وعَدْتُهم حقًّا) فلمّا رأى أبو

فهنا خاطبهم، وقال لهم: أنا لست حزينًا عليكم، وكيف أحزن عليكم وأنتم كفرتم وأعرضتم؟ فأنا أوالي من يوالي الله -سبحانه وتعالى- وأعادي من يعاديه، وأنتم عاديتم شرعه، وعاديتم نبيه، فإذًا أنتم أعدائي.

فقضية الموالاة والمعاداة تكون على أساس الشرع، لا على أساس النسب، أو العاطفة، ولا على أساس العمل، أو الوطن، بل تكون على أساس الشرع ودين الله -سبحانه وتعالى-، فقال: أنا فعلت ما بوسعي ولم أترك شيئًا، بل ويؤكد على ذلك ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى﴾، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: محّضت لكم النصح، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾؟!

وهنا ينتهي المقطع المتواصل من مجموعة قصص الأنبياء المتتالية، ثم يأتي فاصل لإقرار بعض السُّنن الربانية في معاملة الأقوام، وبعد ذلك تأتي قصة موسى عليه السلام بصورة مطوّلة إلى قبل ختام سورة الأعراف.

وفي المرة القادمة سنذكر بإذن الله -عز وجل- هذه السنن التي ذكرها الله -عز وجل- فاصِلةً بين قصص الأنبياء، وبين قصة موسى عليه السلام، ولماذا جاء هذا الفاصل بين قصة موسى وبين قصص الأنبياء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

حُذَيفةَ بنُ عُتبةَ بنِ ربيعةَ أباه يُسحَبُ إلى القَليبِ عرَف رسولُ اللهِ ﷺ الكراهيةَ في وجهِه فقال: (كأنَّكَ كارهٌ لِما ترى) فقال: يا رسولَ اللهِ إنَّ أبي كان رجُلًا سيِّدًا حليمًا فرجَوْتُ أنْ يهديَه اللهُ إلى الإسلامِ فلمّا وقَع بالموقعِ الَّذي وقَع به أحزَنني ذلك فدعا رسولُ اللهِ ﷺ لأبي حُذيفةَ بخيرٍ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٠٨٨ • أخرجه في صحيحه